

حوار في العطاء

شخصيات المحاوره:

- صونيا: صاحبة المنتدى الأدبي سيدة ثرية جميلة مثقفة تملك فكراً ليبرالياً وتؤمن بأن الحرية والعدالة أشياء تستحق أن يناضل الإنسان من أجلها.
- سليمان: مثقف يحمل لواء العقل وسيادة قوانينه.
- حسام: شاعر مبدع يملك ثقافة موسوعية، محبط.
- بريجيت: مغنية كلاسيكية.
- فاطمة: صاحبة مركز تدليك ومساجات.

صونيا: رحم الله من قال آخر الليل نهار، عشت طوال الأسبوع الفانت منقبضة الصدر، مخنوقة الأنفاس، كئيبة من غير ما سبب، أشعر بأن وجودي من باب لزوم ما لا يلزم، حتى تواصلت معكم واتفقنا على هذا اللقاء الذي سنتحاور فيه بموضوع العطاء، فأحسست بعودة جزء من روعي اليّ، قلبي عاد ينبض نبضات شبه متوازنة، والإبتسامة عادت الى ثغري وإن كنت ما زلت أحسها صفراء وطعمها فيه بعض المرورة. أرجو أن يعيد حضوركم اليّ روعي لتكون ثمرة هذا اللقاء هي عودة الروح.

حسام: عندما يصبح الإنسان مثلاً أعلى يقتدي به الآخرون، يفقد الكثير من حريته في أن يكون قوياً أو ضعيفاً، في أن يكون جميلاً أو قبيحاً، في أن يكون سعيداً أو شقيماً. الإنسان المثل الأعلى دائماً مرتبط بالآخرين، ولأنه القدوة في أفكاره وأحاسيسه ومسلكياته فهو ملتزم أن يعمل على نفسه ليل نهار مجاهداً مضجياً ليبقى رمز حقّ وخير وجمال، رمز عدالة وأنس وتفاعل. أنا شخصياً إذا لم أستحم بأريج عطور صونيا، وأتنشف بألق عينيها، لا أشعر بطهارتي، لا أشعر أنني فف نظيفاً أمام الله لأستحق بهاء رحمته وعطائه، لأستحق فيض توفيقه في قدرتي على الخلق والإبداع.

بريجيت: أن يغدو الجمال مصدر طهارة وشفافية ومشاعر علوية وجسر عبور الى الله لعمرى هذه لذة اللذات وسعادة السعادات. ما هذه التربية البذيئة التي تربيناها في هذا الشرق العتيق فحبسنا الجسد في قفص الإثارة والشهوة المحمومة، وتصورنا الجمال لذة حمراء يقتنصها الأقوياء فيحبسونها في غرف قصورهم المظلمة التي لا تدخلها أشعة الشمس، أو يحجبونها ببرقع أو نقاب، أو يلتهمونها بشراهة ذئاب جائعة، ثم يفتشون عن غيرها فريسةً ليوم آخر.

فاطمة: أعرف بالخبرة العملية أنّ الوصول الى الجمال صعبٌ مستصعب لا يحمل أعباءه إلا أصحاب المروءات والهمم. أنظروا حولكم في الشوارع، في مراكز العمل، في المقاهي والمطاعم، أكثر النلس رجالاً ونساءً كروشهم مندلقة، أكتافهم متهدلة، بشراتهم جافة، وعيونهم ذابلة، إنهم عبيد ملذات المأكّل والمشرب والكسل، إنهم أشبه بكتل لحمية رخوة تتدرج على الطرقات. أما أولئك الساعين الى الجمال

بأرواحهم وأجسادهم، تراهم كالسهام المشدودة الى أقواسها تبتغي الإنطلاق الى الأعلى، إنهم كتل حيوية بأجسادهم، وكتل تفاعل بأرواحهم، مسلكيات أجسادهم تناغمت مع قوانين الطبيعة، ومسلكيات أرواحهم تناغمت مع قوانين العقل والمنطق، إنهم المثل الأعلى للتناغم، إنهم أبناء الله عن حق وحقيق.

سليمان: في عصر الإستهلاك والتسويق الذي نعيشه اليوم مع ثقافة العولمة، يجب أن يتجمع المثقفون أدباء وفنانون وفلاسفة من كل أقطار العالم، ويتظاهروا أمام مبنى الأمم المتحدة وهم يرفعون شعار: كل شيء برسم الإستهلاك إلا الجمال، إنه زاد معاد الإنسانية وجسر عبورها الى الله، الجمال يسان ولا يستهلك، الجمال مصدر وحي للشعراء والأدباء والفنانين والفلاسفة، وليس مصدر استهلاك لأكلة اللحوم الذين كلما أكلوا كلما ازدادوا جوعاً ونهماً حتى يضطروا في النهاية الى أكل أنفسهم.

حسام: الجمال ذروة الرحمة الإلهية لبني البشر، ذروة العطاء لأنه الكمال بعينه، والله عندما أعطى الإنسان من ذاته أعطاه كمالاً لا يعتوره النقص، أعطاه نوراً لا تعتوره الظلمة، أعطاه عدلاً لا يعتوره الإستبداد، أعطاه شوقاً لا تعتوره الشهوة وحباً لا يعتوره الإستنثار.

فلينظر الإنسان الى كل هذا الظلام الذي يلفه، والى كل هذا القبح الذي يحيط به، والى كل هذا البخل الذي يمارس عليه، من أين أتى؟ وما هو مصدره، وليفهم هذا الإنسان بأن الله لم يبخل عليه ولا الطبيعة بخلت، إنما هو طمع ذاته وظلامية رغباته وجشع غرائزه، أفلا يخجل الإنسان من نفسه علّ الفرع يعود ليقنّدي بأصله جمالاً وكمالاً وعدلاً وعطاءً؟

صونيا: لا أستطيع أن أتصور الله إلا محبة وجمالاً وعطاءً وعدالةً، ولا أستطيع أن أتصور إنساناً يسعى لتحقيق إنسانيته إلا مقتدياً بالله على قدر سعيه الصادق للتشبه به، فما بال إنسان عصر العولمة قد ملأ قلبه عنصرية وتعصباً، وملأ حوله طمعاً وجشعاً، وملأ أفكاره عبثاً وعدماً، وملأ خياله شوقاً للتعدي والإستنثار والشذوذ والرفض والإنحلال. ما بال إنسان عصر الكهرباء النووية يزداد ظلمة، وإنسان

عصر الفاييس بوك يزداد عزلة، وإنسان عصر القرية الكونية يزداد وحشةً وتوحشاً. ازدادت الكتب وقلّ القراء، ازداد التواصل الإلكتروني وقلّ الحوار، ازداد تلاقي الناس والأجناس وقلّ تفاعل الحضارات والأديان. لا أحد يريد أن يعطي الجميع يريدون أن يأخذوا، إذا قلت لقريبك أو جارك أعطني ابتسامة أو تحية يجيبك إنك تتدخل في شؤوني الشخصية وتتعدى على حرمة استقلاليّتي، إذا قال الأستاذ لتلميذه أعطني ثقتك وصدافتك وأنا أعطيك من عقلي وقلبي يجيبه أنت مجرد موظف يقبض راتبه فلماذا أعطيك ثقتي وصدافتي، إذا قال الصديق لصديقه أعطني من روحك وضميرك قالت له إنني أعطيك من جسدي وهذا يكفي فما شأنك بروحي وضميري. أنا لا أدري هل الناس تمتنع عن العطاء عنداً واستكباراً ورفضاً لكل ما تعارف عليه البشر من قيم ومثل عليا أم أنّ الناس لا تعرف طبيعة العطاء، والجهل، كما قال سقراط، هو سبب الشرّ وليس المعاندة والإستكبار والإستثناء.

سليمان: في المعاجم العربية القديمة الفضل والعطاء ولقب أبو الفضل يعني أبو العطاء ومصدره وينبوعه، وكلّم تلاحظون القربى بين الفضل والفضيلة فهل الفضيلة في مفهوم أجدادنا القدامى كانت تعني العطاء؟

فاطمة: علمتني مهنتي أنّ جمال الجسد بالدرجة الأولى هو إزالة الفضلات منه وإعادته الى طبيعته الأولى من حيث تناسق أعضائه وتآلفها، وأظن أنّ جمال النفس لا يختلف عن جمال الجسد في شيء، فإذا أزلنا من النفس ما علق بها من أوهام ومغالطات بتأثير المفاهيم الإجتماعية الخاطئة والعادات التي ولدت في أزمنة الإنحطاط كالطمع والجشع والإستثناء بالملكية، والتكالب على الملذات، والسعي الى التسلط والتروّس بمختلف الأساليب، إذا نجحنا في ذلك عادت النفس جميلة علوية منجذبة دائماً الى الأعلى حيث الملذات التي لا تولد أضدادها من أحشائها وعلى رأسها لذة العدالة والمعرفة، وأنا برأيي المتواضع أعتبر العطاء الحقيقي هو أن يعطي الإنسان من جوهر ذاته لا من تلك الفضلات التي تشوّهه وتجذبه من جديد الى مرتبة البهيمية.

سليمان: إذا أردنا تفنيد العطاء وتبويبه لقلنا أنّ لجسد الإنسان ونفسه عليه حقاً وللمجتمع عليه حقاً، وللوطن عليه حقاً، وللإنسانية عليه حق، ويجب على الإنسان الشريف المستقيم أن يعطي لكل ذي حقّ حقّه.

بريجيت: أظنّ فاطمة قالت ما هو حقّ الجسد علينا، يجب أن نسعى جاهدين عبر نظام مدروس من الرياضة والمأكل والمشرب حتى نزيل كل ما علق بجسدنا من فضلات ونعيده كما وجد أصلاً سهماً مهياً للانطلاق الى الأعلى برشاقتة وليونته وشفافيته، وأظنها أضاءت أيضاً على حقّ النفس علينا بأن نزيل عنها فضلات الجهل والجشع والطمع والمعاندة والكذب والظلم والتصنم وذلك بالمعرفة التي تحترم قوانين العقل وخاصة القانون السببي، وبالتشبه بالله شرفاً وعفافاً ونورانية وعدالة.

صونيا: لا نستطيع أن نملاً نفوسنا محبةً وأنساً وعدلاً وعفةً ومعزةً إلا إذا أفرغناها من محتوياتها الأخرى التي امتلأت بها في غفلة من مراقبة عقولنا وفي أزمنة تمشي على رأسها ولا تمشي على قدميها، فلكي نتملك العقل المنطقي والعقل النقدي علينا أن نطرد من ذواتنا كل ما علق بها من فكر غيبي خرافي عبثي أسطوري، علينا أن نمتنع عن التحشيش الخيالي، ألم تسمعوا ماذا قال ذلك الفرنسي لتوفيق الحكيم عندما رآه يمشي حالماً في أحد شوارع باريس "إجتري أحلامك أيتها البقرة الشرقية اجتري". نحن ومنذ مئات السنين نجتري تاريخنا، نجتري قيم ماضينا ومفاهيمه نجتري أفكارنا وعصر الإقطاع والجواري والغلمان، نعيش عصرنا بأرواح أتت من عصر آخر، عصر موغل في القدم، وهذا هو سبب ازدواجيتنا.

حسام: دعوني أسأل كيف نستطيع أن نزيل الفضلات من أجسادنا لنعطيها الصحة والعافية والرشاقة وشفافية الإنجذاب الى النور لتتجوهر في النور، ونحن لا نتلمس لذائذنا إلا مع نارجيلة السلطان عبد الحميد، وعلب الليل المقفلة المتعفنة برطوبتها ولزوجة لهاث روادها وإفرازاتهم المقرزة، كيف ونحن نهرب من وهج الشمس الى عفن الظلمة، ومن طهارة الطبيعة الى تلوث المدينة، نهجر قرانا الجبلية طوال عشرة أشهر لنتكس في مدن الملح ونحن نتباهى بإنجازاتنا الحضارية. وكيف نستطيع أن نزيل الفضلات من نفوسنا لنعطيها المعرفة والحكمة والعدالة والإتحاد

بالجمال المطلق، ونحن لا نطعمها إلا فكراً دينياً مذهبياً لا يثمر إلا التعصب والعنصرية وكرهية الآخر والتفوق والتصنم والتحجر الفكري والعاطفي، نحن لا نطعمها إلا ثقافة الإستهلاك والتسويق التي تلبس القليل من الحق بالكثير من الباطل، والقليل من الكلام المفيد بالكثير من الثرثرة، والقليل من الحب بالكثير من الشهوات الشاذة، والقليل من الجمال بالكثير من القبح المزركش والملون بالخداع لإظهاره بمظهر الجمال.

سليمان: إنه صراع الأضداد الأبدي السرمدى الذي يكرس إنسانية الإنسان ويعطيه هويته المميزة له، فلا هو ملاك استطاع عقله أن يملك جميع شهواته ورغباته، ولا هو شيطان شطنت به شهواته حتى أبعدته عن الصراط المستقيم، إنه الإنسان في تذبذبه مرة الى يمين الفضيلة والشرف والمروءة والعفة، ومرة الى شمال المصلحة والمنفعة والاستئثار والاستنقاع بكل ما في الحياة الدنيا من عفونات ولزوجات ودناءات. وهذا الصراع الدائم المستمر يحكمه قانون أنّ ما رجحت كفته يصبح موجوداً بالفعل وضده موجود بالقوة، ولذا فلنسع جميعاً بجهد لا يعرف الكلل أو الملل لنجعل النور فينا موجوداً بالفعل والظلمة موجودة بالقوة، العطاء موجود بالفعل والبخل والاستئثار موجود بالقوة، الجمال موجود بالفعل والقبح موجود بالقوة، العدل موجود بالفعل والظلم موجود بالقوة.

صونيا: ولكن الكفة الراجحة حتى الآن هي كفة الشمال وليست كفة اليمين، فالظلم موجود بالفعل والعدل موجود بالقوة ووجوده قد لا يساوي وجود النار في حجرة صوان مرمية تحت أطنان من جليد القطب الشمالي الذي لا يأتينا منه ولا من إيديولوجيات أهله إلا الخراب والشعارات المخادعة والكثير من الحسنات اللواتي يبعن أجسادهنّ في المزاد العلني.

بريجيت: وما هو حق المجتمع علينا إذا كان الإنسان كائناً اجتماعياً بالفطرة يفعل وينفعل يأخذ ويعطي يحب ويكره يؤالف ويخالف؟

فاطمة: أتمثل المجتمع كمرآة بقدر ما تساهم في تنظيفها وصلها بقدر ما نرى صورنا جميلة على جوهرها، وبقدر ما نساوم في تلويثها والتقاطها للصدأ بقدر ما

نرى صورنا مشوهة وممسوخة ولذا فمن حق المجتمع علينا أن نعطيه السعي لتطويره وارتقائه نحو مزيد من التنظيم والتوازن بين شرائحه وطبقاته، بين رجاله ونسائه، وهذا يتطلب بناء سلم قيم صحيح مبني على منطق العقل والمصالح العليا للمجتمع وذلك باستلهم رؤية حضارية جريئة يتولد من أحشائها استنهاضاً للجماعة في كل الميادين.

سليمان: علاقة الفرد بالمجتمع تحكمها جدلية صراع الأضداد، إذا لم تحسن الفاعليات القائمة على بناء سلم القيم الجماعي فهم دقائقها وأسرارها، كانت النتيجة عكس ما أراد أصحابها لها، فالإنسان هو من جهة فرد مستقل له بصمته الجسدية والنفسية الخاصة به والتي تميزه عن غيره وتعطيه هويته الذاتية، ومن جهة أخرى كائن إجتماعي لا يستطيع أن يرى صورة ذاته إلا على مرايا الآخرين. بعض القائمين على بناء سلم قيم لمجتمعاتهم أفرطوا في التركيز على فردية الإنسان واستقلاليتهم وسيادته لنفسه فأهملوا الجانب الإجتماعي من شخصيته وجعلوا كل شيء مسخراً لتنمية فردانيته، فتولد عن ذلك الكثير من الجشع والشره في التملك والاستئثار بالسلطة. وبعضهم أفرطوا في التركيز على النزعة الإجتماعية في الإنسان فأنكروا الملكية الشخصية بجميع ميادينها، حتى أنهم اقترحوا أن يتربى الأولاد في مدارس جماعية من قبل المجتمع حيث لا يحق للوالدين أن يعرفوا من هم أولادهم، فالجميع أولاد المجتمع، وكذلك عمّموا الفكرة على كل شيء، فالأرض ملكية جماعية، والغلال ملكية جماعية، وحتى النساء ملكية جماعية للرجال، والرجال ملكية جماعية لكل النساء، فأهانوا إنسانية الإنسان وهم يظنون أنهم ينزلون الجنة من السماء الى الأرض، وأخيراً انتهت كل محاولاتهم بأنظمة بيروقراطية ديكتاتورية صادرت العقول والحريات باسم العقل الجماعي والمصلحة العليا للجماعة فكرسوا جهنم واقعاً معاشاً بعد أن كان شبح تخويف وترهيب.

صونيا: هناك مسألة هامة تدخل في مضمون العطاء الإجتماعي لم يأخذها أحد منكم بعين الاعتبار وهي التوازن بين النمو الإقتصادي والنمو السكاني، فلا يجوز للأزواج أن يفرطوا في الانجاب متذرعين بأفكار غيبية أنانية تجعل الآباء يتعاملون مع أولادهم كما يتعاملون مع ممتلكاتهم، فكلما زاد الأولاد عدداً كلما اعتبر ذلك

زيادة في الملكية، والبعض من هؤلاء يبرر زيادة الانجاب بمبررات دينية تضع حداً للمناقشة في الموضوع لأن ذلك يدخل في باب الحلال والحرام. كيف نعطي مجتمعاً ينمو بسكانه ثلاث مرات أكثر مما ينمو باقتصاده؟ الطفل الذي تعلم جدول الجمع يعرف أنّ هكذا نهج لا يقود إلا الى مزيد من الفقر وبالتالي مزيد من الجهل ثم مزيد من المشردين والمجهولي الأب والمستعدين أن يبيعوا إنسانيتهم جسداً وروحاً برغيف من الخبز، أو برغيف من التطرف والتعصب.

حسام: لو أعطينا المجتمع نولاً إقتصادياً ونمواً عمرانياً ونمواً في الثروة والعملية الصعبة، ولم نعطه رؤية جمالية تساعد على تهذيب غرائزه وتشذيب شهواته وتدجين نزعتة الى التعدي والظلم والاستبداد، فنحن كمن يبني على رمال. المجتمع الذي لا يقدر شعراءه ولا يستلهم فنانيه، ويضع رجل المال في رتبة أعلى من رجل الفكر، هو مجتمع يحمل في أحشائه بذور انحطاطه وتخلفه مهما ارتفع شأنه في عالم المال والأعمال والتكنولوجيا، المجتمع الذي لا يحترم نساءه ويعتبرهن مطية لشهوات رجاله مهما علا شأنه في مرافق العمران والبحبوحة هو مجتمع سيهدم نفسه بنفسه لأن عقليته لا تنتج إلا الحكام المستبدين المتسلطين الذين لا يؤمنون إلا بقوة المال وقوة الأجهزة الأمنية.

صونيا: لا يوجد مصهر يفصل الذهب عن النحاس في جوهر الإنسان كمصهر الأسرة، في كنف الأسرة تنتصر عاطفة الرجل الأب على غريزة الرجل الذكر، وتنتصر عاطفة المرأة الأم على غريزة المرأة الأنثى، في مصهر الأسرة تهيمن لذة الأبوة والأمومة على غيرها من الملذات، إنها الأبوة التي تجعل الرجل يكدح ليل نهار لا ليشتري سيارة جديدة أو ليتأنق في ثياب جديدة ولا ليتهيأ لسهرة آخر الأسبوع، بل ليدفع أبناءه الى جامعات راقية يتخرجون منها أقوىاء محصنين من البطالة وعبث الآخرين بمصيرهم. والأمومة.. أنتم لا تعرفون من الأمومة أسرارها العميقة، كثير من بنات بنغلادش والهند يتزوجن فيعاشرن أزواجهن لمدة شهر أو شهرين ثم يسافرن الزوج طلباً لرزق أسرته، وتتجب المرأة طفلاً ثم تودعه عند أمها وتسافر خادمة الى بلاد الذهب الأسود، لا الوالد ينفق دولاراً واحداً من معاشه، ولا المرأة تنفق دولاراً من معاشها، يعيشون عاملين أكثر من عشر سنوات لا يرى

الواحد منهم الآخر حتى يجمعوا مبلغاً متواضعاً يخولهم أن يعودوا الى وطنهم فيبنوا بيتاً صغيراً ويتابعوا تعليم ابنهم قدر المستطاع، أمومة الجدة وأمومة الأم وذلك الحرمان الذي لا يوصف، والناس في البلاد الناعمة لا يفكرون إلا في ممارسة الجنس والتفنن بأساليبه والتسابق في أخذ المقويات، ثم يحتقرون تلك الشعوب المستضعفة ويهتمونها بالانحلال والتخاذل، وبأنها مستنقع رذائل، إنها ليست إلا مستنقع رذائل الحكام المستبدين الذين مهد لهم طريق السلطة رجال المال والأعمال والحكام في الدول الناعمة، دول الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان في الداخل وممارسة أقصى أنواع الإستغلال وامتهان كرامة الإنسان وتسليط الحكام العسكريين والمتدينين على رقاب شعوبهم في الخارج.

بريجيت: كما التناغم يخلق اللحن الخالد، التناغم يخلق الانسانية التي تحقق بشمس العدالة بأجفان لا ترتعش، بتصوري يجب أن يُبذل مجهود دولي جماعي لخلق إنسانية متناغمة تتكلم بلغة واحدة، وتعيش مستويات ثقافية وسياسية واقتصادية متقاربة، وتنهج لبناء تقاليد وعادات اجتماعية متشابهة، وكل ذلك تحت قيادة العقل فلا شيء يجمع بني الإنسان إلا منطق العقل.

سليمان: ولهذا السبب يجب أن نتصدى بكل قوانا لتلك الأفكار التي تروج " إن ما هو حقُّ هنا هو باطلٌ في مجتمعات أخرى، وما هو عدالةٌ هنا هو ظلم واستبداد في مجتمعات أخرى وما هو جمال هنا هو قبح في مجتمعات أخرى".

هذه الكذبة الكبيرة التي اسمها النسبية علينا أن نتصدى لها بكل قوانا ونرفع الصوت عالياً بأن الإنسان بجوهره هو هو أينما وجد وفي أي زمان وفي أي مكان. تختلف المظاهر والقشور أما الجوهر فحقيقة ساطعة كنور الشمس. نحن البشر جميعاً أبناء شمس العقل الكلي بنفوسنا الناطقة جميعاً والدنا الحقيقة والعدالة وأما الرحمة والمحبة والمسامحة والغفران.

حسام: فلنتدين جميعنا إذن بدين شمس العقل وشمس الطبيعة، وليغمر النور الذي يضيء ولا يحرق ضمائرنا وسرائرنا، وليخالط لحمنا وعظمننا، وليجري في عروقنا مجرى الدم في العروق.

بريجيت: ولنغني جميعاً بأصوات متألّفة متناغمة أغاني الفرح والحب والصدّاقة.
ولنكرس بالأفعال لا بالأقوال أنه ليس بخبز المنفعة وحده يحيا الانسان.

فاطمة: ولكن كيف سيقتنع القوي بكف أذاه وارتهاناه للضعيف؟ وكيف سيقتنع الغني بعدم تنمية ثروته بوحشية على حساب الفقير، وكيف سيقتنع الذكي بأنه يجب ألا يستعمل ذكائه للتلاعب بعقول الأغبياء وتضليلهم، كل ذلك لا يمكن أن يتم إلا إذا اقتنع الجميع بأنّ هذا الوجود ليس وليد الصدفة، وأنّ هناك إلهاً عادلاً يدير شؤونه عبر قوانين عقلانية منطقية بعيدة كل البعد عن المزاجية والعبثية والخورق.

سليمان: على بني البشر أن يصدقوا القانون الفيزيائي الذي يقول أنّ لكل فعل ردة فعل تساويه في القوة. وأفعالنا جميعها لها ردات فعل سترتد علينا سواء كانت خيرة أم شريرة، عادلة أو ظالمة، وبالتالي الإنسان بتصرفاته ينسج عباءة قدره علم أو لم يعلم.

صونيا: هذا كله يحتاج الى قناعة أنّ الإنسان هو ابن الوجود وليس ابن العدم، ابن الحياة وليس ابن الموت، ابن الله وليس ابن ثنائية أهورمزدا وأهريمان.

بريجيت: وماذا نفعل بحقّ الوطن علينا؟

سليمان: مشكلة الوطن الحقيقية معنا هي مشكلة الإنتماء، والإنتماء شيء والتعصب والعنصرية شيء آخر، منذ آلاف السنين واللبناني يعيش حالة تشرذم وتفتت، ورغم ذكائه في اختراع الحرف وتصديره الى كل الشعوب، وفي مخر عباب البحار وبناء المستعمرات حتى الوصول الى شواطئ أميركا الجنوبية، رغم كل ذلك بقي اللبناني ابن مدينة وليس ابن وطن، ابن صور التي تتحالف مع الفراعنة ضد بيبيلوس التي تتحالف مع الفرس، ابن قرطاجة التي لا تنصرها أمها صور في ساعات محنتها مع روما، ولا نصرتها أخواتها بيبيلوس وأوغاريت. كان الأعداء يستفردون مدننا وحبّات العقد مبعثرة لا من يأتي بخيط وحدة بسيط ليجمعها ويجعلها عقداً يزين جيد الزمان.

حسام: وهل حاضرنا أفضل من ماضينا؟ أتى فخر الدين بروحية القائد التاريخي فوجدنا وأبدع لنا رؤية الوطن السيد الحرّ المستقل، الذي يشع تطوراً وارتقاءً على كل هذا الشرق المعتم، رؤية تلاقي حضارات الغرب مع الشرق، رؤية جسر العبور بين الشرق والغرب، رؤية أن نكون أبناء عصرنا وليس أبناء عصور ماضية. ثم وضع لنا هدفاً واضحاً هو انتزاع نير العثمانيين عن أعناقنا وتذوق طعم الانتماء الى الوطن المعرفة والحرية والقوة، فخر الدين كان يعلم أنّ ثمن الحرية والتطور نضالٌ بالعقل والقلب واليد والسيف، امتشق سيف النور وضرب به في جميع اتجاهات الاستبداد والقهر والعممة، ولكن كثرت عليه وطاويط الليل فاستنزفته حتى الموت. ثم أتى بشير الشهابي فهدم كل ما بناه فخر الدين، وعدنا على يديه مشرذمين طائفيين قبليين، وانطوت أعلام الانتماء الى الوطن السيد الحرّ المتطور وما زالت منطوية.

فاطمة: فخر الدين... أين أنت يا فخر الدين لتقول لنا أنّ القوة هي قوة الوطن وليست قوة بعض أفراده، والغنى هو غنى الوطن وليس غنى بعض أفراده، وأنّ العزّ هو عزّ الوطن وليس عزّ بعض أفراده. عقلية التجار والسماسرة والقوادين جعلتنا نبيع أرضنا وثقافتنا وعاداتنا وتقاليدنا وكل ما هو إيجابي في حضارتنا لمصاصي دماء ومغتصبي عقول وأجساد، أناس لهم شكل البشر ولكن قلوبهم قلوب ذئاب وروائحهم روائح ضباع.

صونيا: الانتماء الى الوطن هو انجذاب صوفي الى بحرنا بزرقتة اللازوردية، الى جبلنا بعنفوان شمشيره وقممه، الى ودياننا بجداولها وأنهاها وكل شحرور وحسون يغني في ربوعها، الى كل راع يعزف لقطيعه على شبابته، الى صدى أجراس الكنائس وهي تملأ وهاده، انجذاب صوفي مهووس الى وزاله وزعتره وزعروره البري، الى بلوطه وشربينه وتلك الحوريات بقودها الممشوقة وعيونها الخضراء والتي سماها أجدادنا صنوبر، والى ذلك الجلال والكمال والتحدي والعنفوان الذي تجسد شجرة أرز نحتضنها كما يحتضن العاشق معشوقته، ونقبلها بنهم كما تقبل الأرض الطيبة ماء السماء، الانتماء الى الوطن هو أن نعيش روح الإله تموز ونحن نحصد القمح، وندق كأسنا بكأس الإله باخوس ونحن نعصر العنب، وأن نولم الولايم لأدونيس العائد من الأموات ليفرش الدنيا زهوراً تحت أقدام حبيبته عشثروت، ماذا

نرتجي من تجار وسماسرة يتفنون في إغراء فلاحينا لبيع أرضهم للغرباء لينالوا من الصفقات ما يناله الهرّ من مائدة الطعام. ماذا نرتجي من فتاة تباع جسدها في سوق المزاد فقط لتشتري هاتفاً خلويّاً حديثاً وبضع فساتين تباهي بها رفيقاتها وتتنمر عليهنّ، ماذا نرتجي من أصحاب أقلام يؤجرون أقلامهم كما تؤجر المومس قفاها، ماذا نرتجي من طالب جامعي يقرأ ليأخذ شهادة ويتوظف بها لا لكي يتجوهر بالمعرفة ويسعى الى تحقيق إنسانيته. برجوازيتنا الجديدة تتفاخر نساؤها بأنّ أولادهنّ لا يعرفوا التحدث بلغة الوطن ويثغثغون بالفرنسية ويرطنون بالانكليزية كأفضل أهلها فالثرثرة بلغة الوطن " ملحوق عليها".

حسام: أعطانا الوطن أشعة الشمس، وزرقة البحر، وخضرة الصنوبر، أعطانا خريير المياه في الأنهر والجداول والسواقي، أعطانا تكتكة الحسون والشحور والبلبل، أعطانا الهواء النقي والماء الفرات النмир، وكل ذلك مجاناً فماذا أعطينا بالمقابل؟ لقد ابتكرنا سياسة زراعية جعلت الفلاحين يهملون أرزاقهم فنتحول من بساتين تفاح وكرز وعنب الى مقالع شوك وبلان وجربان، ثم جذبنا أولئك الفلاحين الى المدينة للعمل بالخدمات وشجعناهم على بيع أراضيهم للغرباء لقد ابتكرنا سياسة اجتماعية واقتصادية تشجع الشباب على حمل جوازات سفر والتفتيش عن أرزاقهم في بلاد الله الواسعة، ومن ملك الثروة منهم شجعناه على العودة ومن بقي فقيراً أنكرناه ثلاث مرات قبل صياح الديك وقلنا له إبقَ حيث أنت فنحن لا نستقبل الفقراء إلا كخدم وحشم وأزلام وعمال تنظيفات. وأخيراً ابتكرنا سياسة تقسماً الى فرق، واحدة توالي هذه الدولة وواحدة توالي تلك، وواحدة تقاتل بالنيابة عن الدولة التي ترعاها، وواحدة تقاتل بالنيابة عن تلك، كل ذلك لنمسك بالمجد من جميع أطرافه، فنحن شعب كوزموبوليتي وعلينا أن نتفاخر بهذه الكوزموبوليتية.

سليمان: بكلام موجز لا نستطيع أن نعطي الوطن إلا إذا انتمينا اليه، فإذا تمّ الإنتماء خالط دمنا دمه ولحمنا لحمه وعظمنا عظمه وبقاينا تحولت الى ذرات تراب من ترابه، وعواطفنا الى نسيمات من نسيم هوائه، وعنفواننا الى نسخ لعنفوان أرزه، وأحلامنا الى لون سندسي تزهو بها خضرة صنوبره، لا تحدثوني عن الانتماء للوطن قبل أن يتكرس مبدأ الانتماء.

الجميع: فانكرس مبدأ الانتماء... فانكرس مبدأ الانتماء.

كمال يوسف سري الدين